قراءة نقديَّة لكتاب: دمشق ١٩٠٢م للكاتب ستيبان كوندوروشكين

الدكتور غسان كركوتلي(1)

أ.د عمار محمد النهار(2)

(1) دكتور في العلوم الاقتصادية _ عضو مجلس إدارة الجمعية الجغرافية السورية.
(2) أستاذ في جامعة دمشق، قسم التاريخ، المدير ورئيس التحرير.

ملخَّص البحث

يتناول هذا البحث بالنَّقد كتاباً صدر حاليَّاً بعنوان: دمشق ١٩٠٢م، للكاتب ستيبان كوندو روشكين، يتحدَّث فيه الكاتب عمَّا شاهده في دمشق من معالمها وحياة الناس فيها ومناخها، وقد أورد الكاتب خلال ذلك أحكاماً وأوصافاً عن دمشق وأهلها، كثيرٌ منها لا يصحُّ تاريخيّاً، ويُخالف ما كتبه المؤرِّخون والرَّحَّالة الذين زاروا المدينة، فكان لا بدَّ من نقد هذه الأفكار بالأدلَّة الواضحة.

أولاً _ تمهيد وتعريف بالكاتب:

هذا الكتاب من القطع الصغير، في ١٥٩ صفحة، تحدَّث فيه الكاتب عمَّا شاهده في دمشق من معالمها وحياة الناس فيها ومناخها، من غير أن يقف على تفاصيل مُقنعة أو مستوفية للرؤية العلمية المنهجية.

وقبل الدخول في قراءة هذا الكتاب، لا بدَّ من أن نَذكُرَ معلوماتٍ عن الكاتب (ثقافته، عمره، ميوله الدينية والسياسية)، كما ذكرها المترجم.

وُلد ستيبان كوندو روشكين عام ١٨٧٤ في قرية بمقاطعة سمارا شمال روسيا، في أسرة ريفية، ودرس الابتدائية في قريته، ثم انتقل عام ١٨٩١ للدراسة في دار المعلمين، وأصبح مُعلِّماً عام ١٨٩٥ وعمره لا يتجاوز الأحَدَ والعشرين عاماً، وبعد ثلاث سنوات انضمَّ إلى الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية[٣]، ومن خلال هذه الجمعية أُرسل للتعليم في مدارس سوريا عام ١٨٩٨، وحين وصوله تم تعيينه في مدرسة روسية بقرية مشغرة في البقاع الغربي، وكانت تتألَّف من صفٍّ واحد فقط، ثم انتقل لاحقاً للعمل في مدارس روسية أخرى، وفي سنته الخامسة هناك استلم مهمّات مساعد المفتش التربوي للمدارس السورية الجنوبية التابعة للجمعية حتى عام ١٩٠٣.

وبالإضافة لعمل ستيبان كوندو روشكين كمُدرِّس، برز عام ١٨٩٩ ككاتب صحفي وباحث اجتماعي، وكتب أول قصصه وأرسلها إلى مجلة (روسكويه يوغا تسنفو)، وكان موضوعها عن الحياة الاجتماعية في سوريا.

وبعد عودته إلى روسيا انخرط في العمل الكتابي الأدبي، وبدأ بنشر مجموعات قصصية منذ عام ١٩٠٨ بعنوان: قصص سوريَّة، وظهر فيها تبنِّيه وجهةَ النظر الروسية بمواجهة السلطنة العثمانية، ووقع من خلالها في زلَّات استشراقية استعلائية كبيرة، كما يقول المترجم الأستاذ عماد الدين رائف، وظهر وكأنَّه ينظر إلى البلاد وناسها من منظار استشراقي غربي[٤].

(3) وهي جمعية دينية تأسَّست في القدس عام 1882، وحظيت بحماية القيصر الروسي ورعايته.
(4) دمشق 1902: ستيبان كوندو روشكين، ص127.

ومُؤلَّفه (دمشق ١٩٠٢) هو بحث جغرافي تاريخي أنثروبولوجي عن الشام عام ١٩٠٢، نشره في العام التالي (١٩٠٣) مُزوَّداً بالصور التي التقطها بنفسه، وكان عمره وقتها ثمانية وعشرين عاماً، وغابت الترجمة العربية للكتاب حتى ترجمه حالياً عماد الدين رائف.

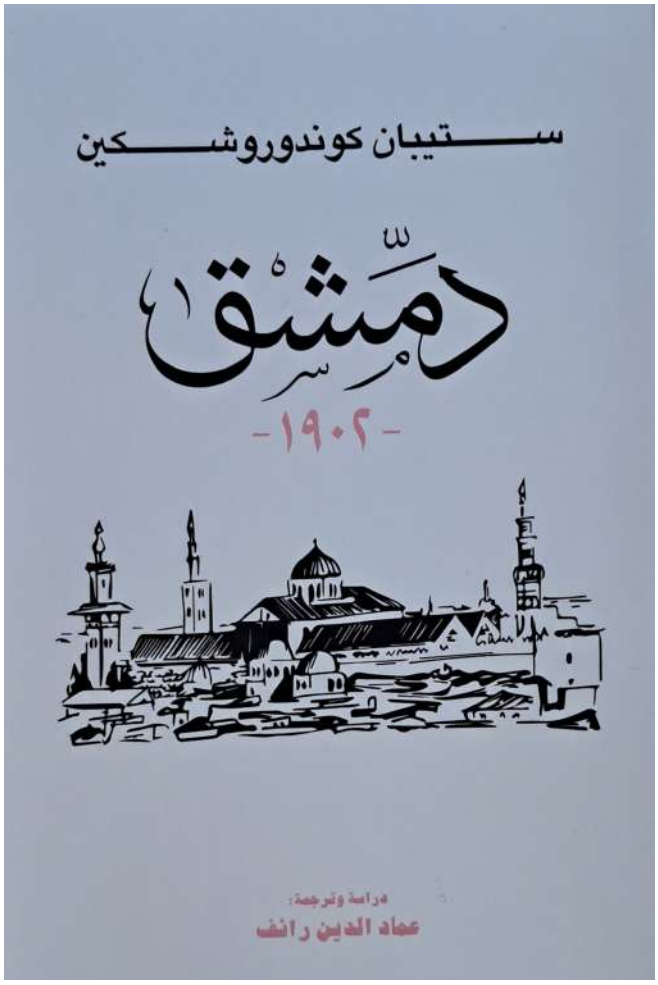

غلاف كتاب: دمشق ١٩٠٢

ثانياً ـ لمحة تاريخية خاطفة:

استهلَّ ستيبان كوندو روشكين كتابه بتمهيد تاريخي سريع وغير واف، ويظهر أنَّه أراد من ذلك تمرير معلومة مُعيَّنة، فأشار إلى أنَّ مدينة دمشق تتمتَّع بتاريخ عظيم منذ العصر الآرامي، وأنَّ سكانها وسكان سوريا الآراميين يُنسبون لإلهم (حدد)، ويُسميه هو: ابن هدد[٥]، وكان مرجعه في ذلك التَّوراة من سفر أرميا، ومن خلاله تنبَّأ بحرق مدينة دمشق لمَّا قال: «أشعل ناراً في سور دمشق، فتأكل كل قصور ابن هدد»، وغمز في الوقت نفسه إلى أنَّ الآراميين كانوا مُعاصرين لـ (المملكة العبرية ـ يهوذا وإسرائيل)!![٦].

وينطبق على ستيبان ما تقوله العرب: رمتني بدائها وانسلَّت، إذا رمى كلمة ومشى كما نقول، وهذا يعني تقصُّد ذكر هذه المغالطة، لأنَّ تاريخ مدينة دمشق في عصر مملكة آرام دمشق بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق.م تاريخ واسع مليء بالعلاقات الدولية المتعددة، وقد بلغت دمشق فيه درجة من القوة مكَّنتها من تزعُّم العالم السوري ـ الفلسطيني في مواجهة التوسُّع الآشوري غربيَّ الفرات، كما تمتَّعت دمشق خلال هذا العصر بقوة اقتصادية كبيرة نتيجة سيطرتها على جزء مهمٍّ من الطُّرق التجارية الواصلة بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط، والأناضول وجنوبي بلاد الشام، ونستدل على ذلك من كمية المعادن الكبيرة التي دفعتها دمشق أواخر أيامها كجزية للآشوريين، مع علمنا أن هذه المعادن أو أغلبها غير متوفِّر في مناطق سيطرتها المباشرة، وإنما حصلت عليها مما كانت تفرضه من ضرائب على القوافل

(5) ويصح أن نقول: أدد، بالآرامية.
(6) دمشق 1902: روشكين، ص13.

التجارية التي كانت تعبر أراضيها، فتراكم من ذلك ثروات كبيرة وظَّفتها في تدعيم نفوذها على القوى المجاورة لها، وفي حشد القوى للتصدِّي للآشوريين، ولا يوجد في ذلك الوقت إلَّا الرواية التَّوراتية في مجال العلاقة بين آرام دمشق وإسرائيل ويهوذا، وبالتالي تُعَدُّ الرواية التوراتية مصدرَها الوحيد(٧).

ثالثاً _ مشاهداته ووصفه للمدينة:

وذكر ستيبان أنَّ دمشق عبارة عن «كومة صفراء رمادية من المنازل المُكدَّسة، بعضها فوق بعض، فيما يُشبه فوضى كاملة، وداخل هذه الفوضى تنتشر أسطح الأسواق المسقوفة الشبيهة بثعابين عملاقة»، وأتى بعد ذلك على ذكر المجاري الضيقة المنحنية التي «تقطع كومة المنازل»، وتمرُّ في جميع الاتجاهات، وتُرمى فيها القمامة، وتتحوَّل إليها مياه الصرف الصحي(٨).

مؤلِّف الكتاب في صورة له في سان بطرسبرغ

فهل كانت بيوت دمشق مُكدَّسة في فوضى كاملة؟! لننظر ماذا قال نعمان قساطلي (ت ١٩٢٠) المعاصر للمدة نفسها التي يتكلَّم عنها ستيبان، يقول: «أبنية هذه المدينة شاهقة ملتصقة بعضها ببعض، لا فسحة بين دار وأخرى، حتى كأنَّ المدينة بناء واحد، وهذه الأبنية التي تشاهداها كأبراج عالية ... بداخلها دور فسيحة مزخرفة بأنواع الزخارف والنقوش، وبصحنها بِرَكٌ محفوفة بالليمون وغيره من الأشجار، مع كثير من النباتات العطرية ذوات الأزهار الجميلة والروائح الذكية ... ولا تدخل داراً من دور دمشق إلا تجد في حجرها فرشاً جميلاً معمولاً بالطراز الشرقي ... ومما يزيد دور دمشق حسناً لطفُ أهلها العجيب ...».

ثم تابع القساطلي الحديث عن البيوت الدمشقية وروائعها، وأورد أمثلة عنها، وجاء على ذكر بيوت هي أشبه ما تكون بالقصور، مثل دار عبد الله بك العظم، ودار متري أفندي شلهوب، ودار أنطون أفندي الشامي، ودار يوسف أفندي عنبر، ودار شمعايا أفندي، ودار سعيد أفندي قوتلي،

(7) انظر: دمشق الآراميَّة التَّشكُّل والاسم والمعنى والتَّاريخ: جباغ قابلو، ص10 _ 41.
(8) دمشق 1902: روشكين، ص17.

ستيبان مع معلِّم عربي في دمشق عام ١٩٠٣

ودار حسن آغا البارودي، ودار سعادة محمد سعيد باشا، ثم قال: «وكل هذه حديثة العهد، أُنفقت عليها المبالغ العظيمة، ويوجد دور كثيرة معتبرة أعرضنا عن ذكرها اكتفاء بالأشهر»، ثم أورد أعدادَها فقال: «وكان عددُ دور دمشق بالتقرير الرسمي سنة ١٨٧١ نحو ١٤٦٩٦ داراً لكل الطوائف»[٩].

أما أحمد وصفي زكريا فيقول، بعد أن عَنون: وصف دمشق أواخر القرن الهجري الماضي في حدود سنة ١٢٩٠هـ: «وتمتاز دمشق عن مدن الشام كلِّها بجمال الهندسة العربية، فكل البيوت الضيِّقة وكل القصور الكبيرة ذات منظر خارجي واحد»، ثم يدخل بنا إلى وصف هذه البيوت من الداخل، ليصل إلى قوله: «ويصعب الدخول إلى بيوت المسلمين التي لها من غناها وأناقتها ما يجلب أنظار السياح وانتباهَهم، أما بيوت النصارى واليهود فالحصول على الإذن بزيارتها سهلٌ، وهي كثيراً ما تكون جميلة أو على الأقل مزيَّنة جدّاً»[١٠].

ويُشير المتخصِّصون إلى أنَّ مَن يدخل إلى دمشق «تطالعه الجدران الصَّماء للبيوت المختلفة المستويات، والتي تُعبِّر عن الفهم العميق للنفس البشرية، حتى لا يشعر الجيران والمارَّة بالحارة بالتفاوت الماديِّ بينهم ...»، ثم يُعدِّدون أسباباً أخرى لهذا التَّصميم، ليصلوا إلى الوصف التفصيلي الجمالي الفائق للبيوت الدمشقية[١١].

وتُجيب مُتخصِّصة عن سبب التراصِّ بين البيوت الدمشقية بقولها: «أَمَّن النسيج المتراصُّ ذو الجدران المشتركة عزلاً محيطيّاً لهذه المنشآت، تاركاً المجال أمام الفناء الداخلي ليتحكَّم بالحرارة»، ثم تُتابِع الحديث عن أسرار الهندسة المعمارية للبيت الدمشقي وتوظيفاته المتنوعة[١٢].

(9) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص165 _ 168.
(10) دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص68، 69.
(11) انظر: جولة معمارية في البيت الدمشقي: زكريا كبريت، جمال كبريت، ص197 _ 230.
(12) انظر: البيت الدمشقي وملاءمته البيئة: لونا رجب، ص231 _ 250.

بردى يمر بالربوة باتجاه دمشق

وإذا عدنا إلى الوراء، في مدة لم تختلف بيوت دمشق بعدها كثيراً، ولم تتغيَّر معالمها إلا قليلاً، وهي عصر المماليك، فسنجد أنَّ الباحث أحمد إيبش قام خلال (٢٥) عامًا بتجميع (٣٩) نصًّا نادرًا لرحَّالين وفدوا على دمشق في عصر المماليك من عدد من الدول الأوروبيَّة، ومنها: فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وسويسرا وبولونيا وروسيا واليونان[١٣]، واطَّلع على أقوالهم، ونقل لنا شهاداتهم في ذلك، ولم نجد مِن هؤلاء من وافق وصفُه وصفَ ستيبان لهذه المدينة.

ومن هؤلاء، على سبيل المثال فقط، الرَّحالة الفلورنسي جورجو كوتشي ـ Giorgio Gucci، الَّذي كتب عام ٧٨٧هـ = ١٣٨٥م: «إنَّ دمشق، أو الجزء المُحاط بالأسوار منها، تبلغ مساحتُه ثلاثةَ أضعاف مساحة فلورنسا. ويدور بها سوران: أي أنَّ هناك أوَّلًا سورًا متينًا يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ ذراعًا وهو خارج الخندق، وثمَّة سور آخر يبعد عن الأول بين ١٥ و١٦ ذراعًا ... والمدينة حصينة جدًّا بأسوارها وخنادقها، ويوجد في داخلها قلعةٌ لها أسوار وخنادق، ويبلغ محيطُها نحوَ الميل ... ومنازلها متَّسعة، بحيث يمكن أن يأوي إليها نحو عشرين ألفًا من رجال الحرب مع خيولهم».

وكتب الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي ـ Leonardo Frescobaldi (ت ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م) في عام ٧٨٧هـ = ١٣٨٥م أيضًا: «إنَّ جميع الشَّوارع الواقعة داخل أسوار المدينة تُنيرها في اللَّيل

(13) دمشق في عصر سلاطين المماليك: أحمد إيبش، ص33 - 35.

سوق البزورية مطلع القرن الماضي

مصابيحُ معلَّقة فيها. ودُورها مرتفعة ومبنيَّة من الخشب الَّذي لا يظهر للعيان، إذ إنَّ جُدُرها الدَّاخليَّة مطليَّة باللَّون الأزرق الفاتح، وأرضها مكسوَّة بالفُسيفساء. وتندر الدُّور الَّتي ليس بها نوافير منحوتة من الرُّخام، والَّتي هي متعةٌ للنَّاظرين. أمَّا شوارع المدينة فتغصُّ بالنَّاس كما هي شوارع فلورنسا يوم عيد القدِّيس يوحنَّا. وكما أنَّ المدينة مزدحمة بالسُّكَّان فشوارعها مكتظَّة بالتُّجَّار والصُنَّاع. وما يُصنع بدمشق هو أكثر ممَّا يُصنع في أيِّ مكان آخر في الدُّنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريريَّة والقطنيَّة والكتَّانيَّة والذَّهب والفضَّة والنُّحاس من جميع الأصناف».

بينما كتب البولوني لودفيكو دي فارتيما LODOVICO DE VARTHEMA (ت ٩٢٣هـ = ١٥١٧م) عام ٩٠٨هـ = ١٥٠٢م: «يتحتَّم عليك أن تعرف أنَّ في مدينة دمشق قلعة حصينة جميلة ... يُضاف إلى ذلك أنَّه في كلِّ زاوية من القلعة المذكورة يوجد رنك فلورنسي محفور بالرُّخام. وهي مُحاطة بخنادق، ولها أربعة أبراج متينة التَّحصين وجسور متحرِّكة. وتعلو هذه الأبراج دومًا مدافع قويَّة ممتازة. وثمَّة خمسون مملوكًا من خدم السُّلطان الكبير يُقيمون مع نائب القلعة على الدَّوام»[١٤].

ونعود إلى ستيبان الذي شاهد البيوت الدمشقية، ووصف بأنَّ أطرافها العلوية متلاصقة لا

(14) دمشق في عصر سلاطين المماليك: إيبش، ص31.

سوق الحميدية مطلع القرن الماضي

يفصلها عن بعضها البعض أكثر من ٧٠ سم[١٥]. وهو وصف واقعي للبيوت الدمشقية في الأزقة الضيِّقة فقط، ولا تزال مشاهدة إلى اليوم.

وأشار ستيبان إلى وجود سوقين كبيرين في المدينة، الأول: سوق الطويل، والثاني: سوق الحميدية، فوصف الأول بأنَّه سوق شعبي مُكتظٌ بـ «الناس والباعة والحمير والجمال والكلاب، وجَوُّه خانق بالدخان والغبار»، ووصف السوق الثاني بأنَّه سوق «أرستقراطي به متاجر أوروبية نظيفة، ورُوَّاده من الأغنياء والموظفين والنساء»[١٦].

إذن، اقتصر ستيبان على ذكر سوقين فقط في المدينة، ووصفهما وصفاً عامَّاً خاطفاً لا يفي بالغرض ولا يعطي الصورة الحقيقية، بينما لو قلَّبنا صفحات كتاب: الروضة الغنَّاء للقساطلي، المعاصر للمدة نفسها التي كتب عنها ستيبان، فسنجد صورة أخرى واضحة ومُعبِّرة، وتعطي مدينة دمشق حقَّها الحضاري الراقي المتمثِّل بالأسواق التخصُّصية الراقية الضَّاجَّة بالحياة، إذ قَسَّم القساطلي أسواق دمشق إلى نوعين، مجموعة ومتفرِّقة، وقال إنَّ المجموعتين تحتويان على (٦٩٠٠) دكاناً، وقال إنَّ الأسواق المجموعة يُطلق عليها اسم المدينة، وعَدَّدَ منها مع ذكر أسمائها

(15) دمشق 1902: روشكين، ص17.
(16) دمشق 1902: روشكين، ص17.

الشارع المستقيم في دمشق مطلع القرن الماضي

وتخصُّصاتها: ٣٠ سوقاً تخصُّصيّاً، أي إنَّ كل سوق كان يتخصَّص بسلعة واحدة تخصُّصية، مثل: سوق الدقّاقين المختصّ بالأقمشة الحريرية، وسوق العطَّارين، وسوق السلاح، وسوق النسوان، وسوق الصاغة، إلخ[١٧].

أما الأسواق المتفرِّقة، فقال إنَّها كثيرة جدّاً، إذ كان في كلِّ حيٍّ كبيراً كان أم صغيراً سوق أو أكثر، ومنها ما كان متَّصلاً بعضُه ببعض كسوق علي باشا وسوق المحايرية وسوق الصناديقيين[١٨].

ومن تحريفات ستيبان، ما أوردناه عن هذه الأسواق قبل أسطر، المتمثل بقوله إنَّ هذه الأسواق: «جَوُّها خانق بالدخان والغبار»، إذ نجد وصفاً معاكساً تماماً بحسب ما ذكره القساطلي، إذ يقول حرفيّاً عن أسواق دمشق: «كلها عريضة مستقيمة جميلة مرتبة، لا ترى الشمسَ في الصيف ولا الأمطار في الشتاء لأنها مسقوفة ... وأرض هذه الأسواق مرصوفة بالحجارة، على أنَّه لتمادي الأيام تغطَّت بتراب، ولكثرة رش المياه عليه صيفاً وتواصل دوس الأقدام صار كبلاط لا يصدر عنه الغبار، فلذلك ترى البضائع دائماً نظيفة»[١٩].

(17) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص169 _ 171.
(18) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص172.
(19) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص173.

شارع النصر (جمال باشا سابقًا) في دمشق مطلع القرن الماضي

ومما لفت نظر ستيبان أنَّ أعداد الكلاب في المدينة كانت كثيرة جدّاً، وأنَّها موجودة في كل مكان وزقاق وحارة، وأنَّ «الأزقَّة كانت قذرة للغاية»[٢٠].

وشاهد ستيبان سور دمشق القديم، ووصفه بـ«المُتهاوي الذي أجبرَ العربَ الغزاةَ على أن يقفوا تحته أربعين يوماً»، وحسبَ طولَه بنحو خمسة كيلو مترات[٢١].

ثم أتى على ذكر «المَعْلَم التذكاري الذي يُمثِّل العصر الإسلامي في المدينة»، وهو المسجد الأموي، وشاهد المباني المنتشرة حوله، ووصفها بأنَّها «مبانٍ حديثة بائسة الذوق»[٢٢].

وبدورنا، ولمَّا دقَّقنا في هذا الكلام، لم نقف على أيِّ رحَّالة أو مؤرِّخ يُشاطر ستيبان هذه الرؤية، بل العكس هو المذكور عند هؤلاء الذين زاروا المدينة وأُعجبوا بمبانيها، خاصَّةً المنتشرة حول الجامع الأموي.

ودخل ستيبان المسجد الأموي، والغريب والمستهجن، مع وجود هندسة معمارية فائقة لهذا المسجد، ومع انتشار العناصر المعمارية الرائعة فيه، من مآذن وقباب وزخارف ...، والتي بهرت

(20) دمشق 1902: روشكين، ص22. ولا ندري إن كان هذا التَّعميم من ستيبان صحيحًا على كل حارات دمشق، ولم نجد المصادر التاريخية تذكر ذلك.
(21) دمشق 1902: روشكين، ص26، 27.
(22) دمشق 1902: روشكين، ص28.

عيون كل من زار هذا المسجد، لم ينطبع في عقله إلَّا ما شاهد من طريقة المسلمين آنذاك في تلاوة القرآن، ولمَّا وصف ذلك وصفَه بطريقة الناقد وغير الفاهم للغايات والطرق الدينية آنذاك، يقول: «وداخل المسجد المسلمون يجلسون على السجاد، ويهزُّون أجسادَهم من جانب إلى آخر، وهم يتلون القرآن بصوت مسموع، والتمايل أثناء التلاوة إلزامي، ويُؤدِّي التمايل المنتظم في الواقع إلى حالة ذهاب العقل في عمق التأمُّل في أسرار النعمة الإلهية المستمدَّة من التلاوة!»[٢٣].

ولفتَ نظرَه في صحن الجامع «الغرفة القائمة على أعمدة بساحة المسجد، والتي فُتحت للإمبراطور الألماني، فوُجد فيها كتب مقدَّسة إسلامية ومسيحية باللغات العبرية والسريانية واليونانية والعربية»[٢٤].

وقد اختصر ستيبان جوامع دمشق ومساجدها بذكر الجامع الأموي فقط، وتغاضى عن ذكر عشرات المساجد المنتشرة في كل مكان من المدينة، وهنا يقول المؤرخ نعمان القساطلي: «الجوامع في دمشق كثيرة العدد ومتفرقة في كل أنحاء المدينة، وتبلغ ١٥٣ جامعاً، هذا فضلاً عن مقابر الأولياء الشهيرة، والمدارس العديدة التي تُقام فيها الصلاة، وإذا قصدنا ذكرها بالتفصيل ضاق عنها هذا الكتاب، فنقتصر على ذكر الجوامع الأكثر شهرة ...»[٢٥].

ثم جاء ستيبان على ذكر صلاح الدين الأيوبي، ويظهر أنَّه شاهد المدرسة العزيزية الملاصقة للجامع الأموي، وتحتها ضريح صلاح الدين، وذكره بجملة واحدة فقط، ومع ذلك لم يحالفه الصواب فيها، إذ قال: «يُعرف القائد صلاح الدين الأيوبي بأنَّه فاتح دمشق الشهير»[٢٦]، فصلاح الدين لم يفتح دمشق بل فتح بيت المقدس، والذي فتح دمشق هو أستاذ صلاح الدين نور الدين محمود بن زنكي.

رابعاً _ التوزع الديني للسكان:

لعلَّ أهم ما جاء في هذا الكتاب، ذكر ستيبان للتوزُّع السكاني في مدينة دمشق في الوقت الذي زارها فيه، ولا ندري مدى مصداقية هذه المعلومات.

بكل الأحوال يُخمِّن ستيبان بأنَّ عدد سكان دمشق ربما يصل في وقت زيارته لها بثلاثمائة ألف نسمة، بينما الأرقام الإحصائية الرسمية تَذكُر مئةً وأربعةً وستِّين ألف شخص، مُوزَّعين حسب الديانة على النحو:

(23) دمشق 1902: روشكين، ص29.
(24) دمشق 1902: روشكين، ص30. ويقصد قبة الخزنة أو المال طبعاً.
(25) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص180 _ 185.
(26) دمشق 1902: روشكين، ص30.

المحمديون السنُّة	٩٩٠٠٠
الأرثوذكس	٢٠٠٠٠
الروم الكاثوليك	١٥٠٠٠
السريان الكاثوليك	١٠٨٠٠
الموارنة	٣٤٧٠
الأرمن الغربيون	٩٠٠
اللاتين	٦٠٠
اليهود	٤٠٩٠
المجموع	١٥٤٠٠٠

ويرى ستيبان أنَّ المسيحيين يُشكِّلون ثلث سكان دمشق، بينما يلفت النظر بشكل خاصٍّ إلى عدد اليهود، فيذكر أنَّ بالمدينة ثلاث مدارس يهودية ابتدائية، فيها أكثر من ألف تلميذ، ويصل إلى نتيجة أنَّ عددهم في دمشق أكثر من عشرة آلاف نسمة، مع أنَّهم في الإحصاء الرسمي لا يصلون إلى أكثر من أربعة آلاف!![٢٧].

ونحن، بدورنا، لو قارنا عدد سكان دمشق، بتنوُّعهم، في المدة التي عايشها ستيبان، وبفرق بضع سنوات فقط، سنجد تزويراً كبيراً منه بعدد السكان، إذ أتى المؤرخ نعمان أفندي قساطلي على ذكر إحصاء تفصيلي لسكان مدينة دمشق، وأورده كالآتي[٢٨]:

عرب	١٢٦٧٠٠
مغاربة	٤٢٠٠
أتراك	٤٠٠٠
أكراد	٦٠٠٠
عجم	٦٠٠
أرمن	٦٠٠
إفرنج ويونان	٣٥٠
سريان	٣٠٠
المجموع	١٤٢٧٥٠

(27) دمشق 1902: روشكين، ص34.
(28) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص26، 27.

ثم أورد القساطلي إحصاءً آخر بحسب مذاهب أهل دمشق، وجاء كالآتي:

سنة	١١٤٠٠٠
شيعة	٥٤٠٠
دروز وغيرهم	٢٥٠٠
روم أرثوذكس	٧٠٠٠
أرمن	٤٥٠
سريان قدماء	٤٥٠
غرباء مستوطنون	٢٠٠
روم كاثوليك	٧٠٠٠
أرمن كاثوليك	١٤٠
سريان كاثوليك	٢٠٠
موارنة	٢٠٠
لاتينيون	٥٠
بروتستانت	٦٧
يهود	٥٤٠٠
المجموع	١٤٣٠٥٧

فيُظهر هذا الإحصاء الدقيق لنعمان قساطلي، المُعاصر للمدة نفسها التي كتب عنها ستيبان، تزويراً كبيراً في عدد سكان دمشق، وخلطًا للأوراق كما يقولون، وهذا يعني انعدام الأمانة العلمية والمنهجية العلمية لدى ستيبان، أو أنَّه، وهذا ما نرجِّحه، تعمَّد هذا التَّضليل لغايات دينية غير مُحقَّة.

ولحسن حظِّنا أنَّ أحمد وصفي زكريا قدَّم إحصاءً لعدد سكان دمشق في المدة نفسها التي نعالجها، فبعد أن عَنون: وصف دمشق أواخر القرن الهجري الماضي في حدود سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م)، قال: «وسكان دمشق نحو: ١١٠ ـ ١٢٠ ألف نسمة»، ثم وضع الجدول الإحصائي، وهو كما يأتي[٢٩]:

(29) انظر: دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص65، 66.

مسلمون	٧٤٤٦٤
دروز	٥٠٠
روم كاثوليك	٦١٩١
روم أرثوذكس	٥٩٤٥
سريان كاثوليك	٢٦٠
أرمن وكلدان	٤٠٥
أرمن كاثوليك	٢٣٥
موارنة	٤٠٦
لاتين	١١٠
بروتستانت	٧٠
غرباء وجنود	١٥٠٠٠
يهود	٤٦٨٠
المجموع	١٠٨٧١٦

وفي كل الأحوال، وصف ستيبان سكان دمشق أيضاً بأنَّهم «متنوِّعون عرقيَّاً»، ويُشكِّل العرب الذين وصفهم بـ «الغزاة» الأكثرية، ولاحظ أنَّ المسيحيِّين تظهر عليهم «ملامح سكسونية سلتية وسلافية وجرمانية ورومية»، وأنَّ «من الواضح أنَّ شمس سوريا أثَّرت على بشرتهم وطمست بعض الاختلافات بالملامح»[٣٠].

ووصف ستيبان نساءَ دمشق، وقال إنهنَّ بارعات الجمال، ذوات عيون سوداء كبيرة، معظمهنَّ سمراوات، بينما الشقراوات قليلات جداً، وتعتمر العديد منهنَّ القبعات، ولفت النظر بأنَّ الدمشقيات تتفاخرن بمعرفتهنَّ اللغة الفرنسية، ولما قارن الجمال قال: «إنَّ المسيحيات الكاثوليك أكثر جمالاً من المسيحيات الأرثوذكس والبروتستانت»[٣١].

ويظهر أنَّ ستيبان وقف على الصفات الذاتية النفسية لأهل دمشق، وقرَّر ــ برأيه ــ أنَّ المسلمين الدمشقيِّين وَدودون مهذَّبون متواضعون، وصادقون لا يُخلفون الوعد والعهد، وأنَّ المسيحيين يتَّصفون بالكذب والتظاهر بالنقيض والجبن والسَّفاهة، ويَنتقمون بدناءة وشرٍّ وخُبث، وأنَّ كل هذه الصفات فيهم لم يستطع الدين المسيحي التخفيف منها، ولم يُخفِّف منها التعليم على أيدي المُبشِّرين الأوربيين[٣٢].

(30) دمشق 1902: روشكين، ص35.
(31) دمشق 1902: روشكين، ص36.
(32) دمشق 1902: روشكين، ص37.

ساحة الشهداء (المرجة) في دمشق مطلع القرن الماضي

ولا نجد هذا الوصف لمسيحيي دمشق في كتب المعاصرين للمدة التي يتكلَّم عنها ستيبان، ومنهم نعمان القساطلي المسيحي، الذي لم نجد في كامل كتابه: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء أي إشارة لذلك، ولم نعثر على أيٍّ من ذلك في كتابات أحمد وصفي زكريا، بل تكلم عن حالة صحية للمسيحيين في دمشق، وعن تعليمهم ذكوراً وإناثاً، ومدارسهم، وراهباتهم، وأعمالهم ... إلخ[٣٣].

ونجد في ثنايا سطور ما كتبه ستيبان تلميحات سلبية ليس لها أي مصداقية في ميزان الحقيقة التاريخية، ومن ذلك وصفه لحالة عجيبة لم يذكرها أحد من المؤرِّخين أو الرَّحَّالة، إذ رأى أنَّ «حالة العبودية لدى المسيحيين في سوريا مستمرة منذ أحد عشر قرناً، منذ غزو المسلمين لها، وامتثالهم لشروط الطاعة التي أرسلوها للخليفة عمر بن الخطاب، ولا يزال تطبيق شروطها قائمًا حتى اليوم، وكان التسلُّط على المسيحيِّين المحلِّيِّين بلا حدود!»، ورأى أنَّ المسلمين في دمشق «كانوا يتميَّزون بالتعصُّب الشديد، إلَّا أنَّه تغيَّر اليوم بعد سقوط الإسلام، وتسلُّل التنوير إلى مملكة الإسلام المظلمة!»[٣٤].

(33) انظر: دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص65، 66.
(34) دمشق 1902: روشكين، ص41.

ولنا أن نسأل: ما مدى مصداقية ما ذكره ستيبان عن المسيحيين بدمشق؟ وهو تساؤل نجد جوابه في كتاب نعمان قساطلي الذي يعطينا صورة مغايرة تماماً لما ذكره ستيبان، ويكفي أن القساطلي مسيحيٌّ، ولم نجد في كتابه أي إشارة إلى ذلك، وقد وضع القساطلي العنوان الآتي: كنائس دمشق وأديرتها، وتكلَّم تحت هذا العنوان على عشرات الكنائس والأديرة، ولم يورد كلمة واحدة توافق على ما ذكره ستيبان[٣٥].

ثم ذكر عنواناً آخر هو: مدارس النصارى، وذكر تحته أسماء تسع عشرة مدرسة للمسيحيِّين للذكور والإناث، وعن أعداد المعلمين فيها وأعداد الطلبة، والمقررات المُدرَّسة، ونفقات هذه المدارس، ولم نجده يذكر أي انطباع سلبي في كل ذلك، بل دلَّ سياقُ كلامه على حالة حضارية اتَّصفت بها مدينة دمشق[٣٦].

ثم خصَّص فصلاً كاملاً بعنوان: مشاهير علماء المسيحيِّين في جيلنا الحاضر[٣٧].

وخصَّص فصلاً آخر كاملاً بعنوان: القدِّيسون والمشاهير من العلماء المسيحيين الذين نشؤوا في دمشق[٣٨].

ولم نجد القساطلي المسيحي يذكر ولو إشارة أو تلميحاً إلى ما قرَّره ستيبان!

ومن اللافت للنظر في كتاب ستيبان أنَّه يُشير إلى يهود المدينة كثيراً، وحين يتكلَّم عنهم يتكلَّم بطريقة تعاطفية، من ذلك قوله أنَّه بالرغم من أنَّ اليهود «يُشكِّلون كتلة بشرية صغيرة، إلَّا أنَّها تحتلُّ مساحة شاسعة جنوب المدينة»، ويتابع: «من الواضح أنَّ اليهود جاؤوا إلى دمشق منذ زمن بعيد، وفي أوقات لاحقة، وبشكل مستمرٍّ انضم إليهم يهودٌ آخرون من جميع البلدان، فزاد عددهم»[٣٩].

ووصف ستيبان أحوالَ هؤلاء اليهود في دمشق، وقال إنَّهم يعملون بالحرف والتجارة، ويعيشون بهدوء وسلام، ولا يتعرَّضون للاضطهاد كما هو الحال في أوروبا[٤٠].

وأشار إلى أنَّ اليهود الروس «يتمتَّعون بالمزايا الأوروبية، فهم لا يدفعون الضرائب، ولا يخضعون للعقاب بموجب القوانين التركية»[٤١].

وأتى ستيبان على ذكر «المسلمين الكريتيين» الذين هاجروا من اليونان إلى دمشق، وقال

(35) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص174 _ 180.
(36) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص204 _ 206.
(37) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص252 _ 264.
(38) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص247 _ 252.
(39) دمشق 1902: روشكين، ص40.
(40) دمشق 1902: روشكين، ص41.
(41) دمشق 1902: روشكين، ص42.

إنَّ الحكومة بنت لهم على طول سفح جبل الصالحية منازل بصفوف منتظمة[٤٢].

وتحدَّث ستيبان عن هجرة الشركس القوقاز إلى دمشق، وذكر شيئاً من أسبابها، وأدلى برأيه في هذه القضية بقوله بأنَّ الحكومة التركية تُرحِّب بهم وتُقدِّم لهم الأرض والمسكن والطعام، بينما هم برأي ستيبان مستوطنون جبليُّون متعصِّبون متوحِّشون دينيَّاً، ويرفضون التَّمدُّن[٤٣].

قبة الخزنة في الجامع الأموي، وفي مداها مأذنة قايتباي

خامساً _ الحياة في دمشق:

بحسب رؤية ومشاهدة ستيبان، فإنَّ الحياة في دمشق كان يتركَّز أغلبُها في الشارع، أي معظم نشاطات الدمشقيِّين لم تكن في المنازل، لذلك _ كما رأى _ فإنَّ الشوارع كانت مزدحمة، مع وجود عدد لا يحصى من المقاهي المتلئة بالناس طوال اليوم، ووصفهم بأنَّهم يجلسون في المقاهي هذه بـ «خمول على أرائك ممزَّقة، يحتسون القهوة، ويلعبون النرد، ويُدخِّنون النارجيلة، ويسمعون الموسيقا، ويسمعون روايات بعض الحكواتيِّين الذين يتمتَّعون بفن الإلقاء وارتجال الشعر»[٤٤].

وأشار ستيبان إلى وجود مسرح في دمشق، وقال إنَّه في قبو صغير، وكانت تُقام فيه العروض المتنوِّعة؛ كالأغاني مع الموسيقا والرقص، والمسرحيات الكوميدية باللغتين العربية والتركية[٤٥].

(42) دمشق 1902: روشكين، ص43.
(43) دمشق 1902: روشكين، ص46.
(44) دمشق 1902: روشكين، ص53.
(45) دمشق 1902: روشكين، ص55.

وشهد ستيبان شهرَ رمضان في دمشق، ووصف كيف كانت الشوارع خلاله تكتظُّ بالناس، وخاصة ساعات الظهيرة.

وذكر أنَّه في كل سنة وفي اليوم الخامس بعد رمضان تُغادر قافلة الحج نحو مكَّة، ولذلك كان الحُجَّاج يتوافدون من جميع أنحاء العالم إلى دمشق ليسيروا بقافلة واحدة تعبر الصحراء، ويحرسها جنود أتراك، ويجتمع الجميع في الميدان جنوبي دمشق.

وهنا، وكعادته بالغمز واللَّمز ومحاولة التركيز على السلبيَّات، عَدَّ ستيبان أنَّ مكَّة المكرمة هي المصدر الأول للأمراض الوبائية المُعدية مثل الطاعون والكوليرا!![٤٦].

سادساً _ مناخ دمشق وما يتعلَّق بذلك:

ولم ينسَ ستيبان أن يأتي على وصف مناخ دمشق، فبَيَّن أنَّها كانت تتمتَّع بمناخ صحيٍّ معتدل، لا تتجاوز الحرارة فيه ٣٢ صيفاً، وتهبط إلى الصفر شتاءً[٤٧].

وذكر ستيبان هنا أمراً عجيباً، وهو أنَّ لباس الدمشقيِّين في الصيف لم يختلف عن لباسهم في الشتاء، ووصفهم بأنَّهم غير مبالين بنوعية الملابس صيفاً وشتاءً، وعَمَّم وصفَه على سكان دمشق بأنَّهم كانوا يمشون حفاةَ الأقدام، ويلبسون قنابز وطرابيش، وأنَّ الأطفال كانوا يأتون إلى المدرسة نصفهم يلبس قبقابًا والنصف الآخر يأتي حفاة[٤٨].

ولنا أن نُحيل القارئ إلى ما ذكره القساطلي وأحمد وصفي زكريا، لنتبيَّن انتفاء الأمانة العلمية عند ستيبان، إذ ذكر القساطلي ملابسَ أهل دمشق بمختلف مذاهبهم وأديانهم، من المسلمين والمسيحيين واليهود، وجاء على ذكر لباس النساء كذلك، ولم يقل أو يُشر إلى أيٍّ مما ذكره ستيبان، لا صراحة ولا إشارة[٤٩].

أما أحمد وصفي زكريا، فيقول بعد أن عَنون: وصف دمشق أواخر القرن الهجري الماضي في حدود سنة ١٢٩٠ هـ: «أما السكان فهم جميلو الصورة، مَهيبو الطلعة، يُميِّزهم الناظر بجمال ملامحهم وحسن قوامهم وصفاء دمهم العربي»، ثم يُتابع مستهجناً رؤية بعض من يلبس اللباس الأوروبي، ويقول: «ولا يظهر في سكان دمشق، كما في سكان إستانبول، ذلك التباين البارز في الملامح والهيئات الذي حصل من شدة اختلاط العناصر، واللباس الأوروبي والكسوة الرسمية البشعة التي أوجدها الترك عقب التنظيمات (١٢٥٥هـ) لا يراهما السائح في دمشق إلا فيما ندر»، ثم يُبدي إعجابه بلباس أهل دمشق، فيقول: «الشوارع ملآى بجماهير ذات منظر مُعجِب

(46) دمشق 1902: روشكين، ص58.
(47) دمشق 1902: روشكين، ص61.
(48) دمشق 1902: روشكين، ص62.
(49) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص216، 217.

للعين، وألوان متعدِّدة مبرقشة، وتتسلَّل النساء في هذه الشوارع تسلُّل الأشباح والطُّيوف، وهذه النساء يلبسن ملاءات طويلة فضفاضة بيضاء، ويسترن وجوههن بالبراقع ستراً دقيقاً»[٥٠].

وأخبر ستيبان أنَّ الدمشقيين كانوا يُصابون بأمراض مختلفة في المعدة والأمعاء بسبب المياه غير الصحية، لأن مياه نهر بردى كانت تنساب في أقنية من دون أن تخضع للتنظيف أو التطهير[٥١].

ورأى نظام صرف صحي في المدينة، وبرأيه هو الوحيد المفيد عمليّاً، وأنَّ نظام الريِّ مبنيٌ بشكل ممتاز، ويُوزِّع المياه على جميع أنحاء المدينة والحدائق بمهارة كبيرة دون أي آلات، إلَّا أنَّ هذه المياه كانت تحمل معها الأوساخ والصرف الصحي من كل منزل فيها[٥٢].

وهذا أمر اختلط على ستيبان، أو أنَّه تعمَّد المغالطة، إذ، من المعروف، أنَّ مدينة دمشق كانت مُزوَّدة بشبكة من الأقنية على قسمين، أقنية للمياه الوسخة، وفوقها أقنية للمياه النَّظيفة، وهذا أمر لفت أنظار الرَّحَّالة، فتكلَّموا على ذلك بإعجاب شديد[٥٣].

ولم نجد من ذكر أن شبكة هذه الأقنية قد اندثرت أو تعطَّلت في الزمن الذي تكلَّم عليه ستيبان! وقد تحدَّث القساطلي بفصل كامل عن مياه دمشق وعَنونه: فصل في مياه دمشق ومتنزَّهاتها[٥٤].

وقد تحدَّث أحمد وصفي زكريا بالتفصيل عن مياه دمشق وأقنيتها وتوزُّعها، والبراعة في كل ذلك، وكان بين يديه (بتاريخ ١٩٢٥) التقرير الذي عرضته اللجنة المكلَّفة بالكشف عن مقاسم نهر يزيد وقناة المزة والديراني وثورا والقنوات وبانياس وبردى، ومشاهداتهم في ذلك، وبعد أن عرض نتائج الكشف من خلال التقرير قال: «إنَّ ما جاء في الحجة آنفة الذكر ... بشأن جعل سكور الماء من كباشات الخشب ومن الشوك والبلان والغما مذكور أيضاً في كتاب: البرق المتألق في محاسن جلِّق ... مما يدلُّ على أن استعمال هذه المواد قديم منذ قرون لا يُعرف أولها»[٥٥].

ونزيد الأدلة دليلاً آخر يتمثَّل بكتاب قيِّم جداً، لعدد من الباحثين المتخصِّصين، أصدرته جمعية أصدقاء دمشق، والكتاب بكامله مداره حول جغرافية دمشق وطبيعتها ومياهها، ونحيل بشكل خاصٍّ إلى الأبحاث التالية فيه: مشروعات استثمار الموارد المائية في العصور القديمة، الطوالع والسبل والنواعير في مدينة دمشق، الصرف الصحي في مدينة دمشق[٥٦].

(50) دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص67، 68.
(51) دمشق 1902: روشكين، ص62.
(52) دمشق 1902: روشكين، ص63.
(53) انظر: دمشق في عصر سلاطين المماليك: إيبش، ص30.
(54) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص195 _ 199.
(55) دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا: أحمد غسان سبانو، ص191 _ 115.
(56) انظر: الخصائص الطبيعية لواحة دمشق: مجموعة من الباحثين، ص249 _ 268، 269 _ 300، 327 _ 346.

ونضيف دليلاً آخر ببحث مهمٍّ شرح فيه كاتبه المتخصِّص القنوات في دمشق، وكيف كانت موزَّعة بطرق تكاد تحاكي الطُّرق الحديثة اليوم، وكيف كانوا يتغلَّبون على ضغط المياه بوضع مصادات للضغط تُعرف بالطَّوالع، والتي لها دور آخر تؤديه، فهي عبارة عن مُوزِّعات للمياه، تأخذ المياه من الشبكات وتوزِّعها بدورها على مختلف المنشآت بمقادير محددة، وكانت شبكة المياه مؤلَّفة من ثلاثة عناصر هي: المآخذ والقساطل والطوالع.

ثم أفاض الكاتب بذكر أدوار هذه العناصر الثلاثة[٥٧].

وشاهد ستيبان بساتين دمشق الشاسعة وأشجار الفواكه فيها، لكنَّ انطباعه حينذاك كان غريباً، وهو أنَّ «المدينة مُملّة وقذرة للغاية، إلَّا أنَّها الأكثر أماناً بين مدن سوريا وفلسطين»[٥٨].

ولنا أن نُعلِّق أنَّ هذا الانطباع الشاذَّ الذي عبَّر عنه ستيبان لا نكاد نجد له شبيهاً عند كل من كتب أو زار أو رحل إلى هذه المدينة، بل ما نجده هو العكس، وبما أننا اتَّخذنا كتاب القساطلي مجالاً للمقارنة مع كتاب ستيبان بسبب المُعاصرة، فإنَّنا نجد في هذا الكتاب من أوله إلى آخره عكس ما ذكره ستيبان، ثم إنَّ القساطلي أنهى كتابه بقوله: «وقد امتُدحت دمشق من كثيرين نظماً ونثراً، ويضيق ذرعاً هذا المختصَر عن ذكر كل ما قالوه»، فاكتفى القساطلي بذكر قصيدة واحدة من عشرات الأبيات[٥٩].

ثم إنَّ القساطلي تحدَّث عن حمامات دمشق، وهي رمز النظافة والطهارة، وقال: «أجمع الذين ساحوا في جميع أنحاء الممالك العثمانية وبعض الديار الشرقية على تفضيل حمامات دمشق على غيرها، لما فيها من الإتقان والنظام والهندسة وغزارة المياه وإتقان الخدمة والإكرام والاعتناء وبخس الأجرة بالمغتسل»، ثم تابع شرح أقسام الحمام، وقال إنَّ بدمشق (٥٨) حمَّاماً، ثم ذكر أشهرها[٦٠].

والكلُّ يعلم أنَّ أقلاماً كثيرة من الشُّعراء والمؤرِّخين والجغرافيِّين تناولت هذه المدينة بالتَّأريخ والمديح، ووصفوا أنهارها وجِنانَها ومياهها ونظافتها وسحرها.

وكانت المدينة تلفت أنظار الرَّحَّالة بنظافتها، إذ كانت مُزوَّدة بشبكة مجارٍ للمياه الوسخة في أقنيَّة عميقة، تمرُّ من فوقها أقنية المياه النَّظيفة. وكانت مياه البرك والبحيرات تفيض في هذه المجاري فتَسوق ما فيها إلى ظاهر المدينة لسقي الغيطان. وقد أُحصيت الحمامات قبل كارثة تيمورلنك فكانت ٢٠٠ حمَّام[٦١].

(57) انظر: المناهل في مدينة دمشق: أحمد طرقجي، ص251 _ 274.
(58) دمشق 1902: روشكين، ص66.
(59) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص269 _ 273.
(60) انظر: الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص185 _ 187.
(61) دمشق في عصر سلاطين المماليك: إيبش، ص30.

وقد تمَّ في عهد أمير دمشق تنكز تنظيف هذا النِّظام المائي وإصلاحه، وفحصه فحصاً دقيقاً، وذلك حرصًا على تأمين المياه لوسط المدينة، وقد كلَّف هذا المشروع ٣٠٠ ألف درهم[٦٢].

واستنتج ستيبان أنَّه وبسبب المناخ الصحي لدمشق فهي خالية من مرض الجذام منذ أقدم العصور، وأورد، كدليل على ذلك، قصة وردت في التوارة عن شفاء مرضى الجذام في دمشق، لذلك كان يسود اعتقاد أنَّ لمناخ المدينة ومياهها تأثيرًا شافيًا من هذا المرض، وأنَّ الثقة بهذا الاعتقاد متجذِّرة لورودها في التوارة[٦٣].

وهنا نقف على مغالطة واضحة، إذ لم يُشر ستيبان إلى السبب الحقيقي وراء خلوِّ دمشق من مرض الجذام، ألا وهو طهارة ونظافة مياهها، ولعلَّه لم يُفصح عن ذلك كيلا يضع نفسه موضع المناقض للحقائق، إذ تكلَّم قبل أسطر عن أنَّ مياه دمشق وسخة تُسبِّب الأمراض، بينما ذكر القساطلي عكس ذلك لمَّا قال: «ومياه دمشق فيها خاصة لدفع مرض الجذام، فلا يُصيب أهل دمشق، والغريب الذي يأتيها مصاباً به لا يزيد مرضه»[٦٤].

الخاتمة _ ملاحظات عامة على كتاب ستيبان:

وبعد هذا الشرح والتلخيص والنقد لكتاب: دمشق ١٩٠٢، نقف على الملاحظات العامة الآتية التي شابت هذا الكتاب.

_ إنَّ ما ذكره هذا الكتاب عن دمشق مقتضب جداً، وهذا الاقتضاب أدى إلى أخطاء كثيرة.

_ تغيب الأمانة العلمية في كثير من مواضع هذا الكتاب.

_ لم يلتزم الكاتب بالمنهجية العلمية، إذ ظهرت ميوله الدينية في مواضع عدَّة، وحكم على عدد من القضايا من خلالها .

_ ارتكب الكاتب خطأ التَّعميم، فأدَّى إلى عدم صحة كثير من الأحكام التي أطلقها على دمشق وأهلها .

_ لم يمتلك الكاتب مهارة تاريخية أو وصفية، وظهر بمظهر الكاتب المبتدئ.

_ من يقرأ هذا الكتاب من المتخصِّصين سيكتشف بسهولة أنَّ مؤلِّفه لم يقرأ عن تاريخ دمشق في أي مرجع عربي أو روسي، واكتفى بما ورد في التوراة، ورَجَّحه حتى على مشاهداته الحية.

(62) انظر: الحياة الاجتماعيَّة في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشَّريف: أنس المحمد، ص86. مدن إسلاميَّة في عهد المماليك: إيرا لابدوس، ص123 - 126.
(63) دمشق 1902: روشكين، ص68.
(64) الروضة الغنَّاء في دمشق الفيحاء: نعمان أفندي قساطلي، ص224.